الحياة الثقافية بحاضرة تلمسان على عهد الزيانيين

أ.هدراش شريفة

جامعة تلمسان .

مقدمة:

أخذت تلمسان تلعب دورا مهما في المغرب الاسلامي في مجال العلم والمعرفة، خاصة على عهد بني زيان الذين حكموا الحاضرة لمدة ثلاثة قرون، ورغم الصراعات التي شهدها عهدهم لم يمنع بالاهتمام بالعلم والفكر والعمران، واكتسب المجتمع التلمساني رقي حضاري وثقافي واسع النطاق ساهم في نشر الحركة الفكرية والمعرفة وتعميقها بواسطة التعليم والاحتكاك بالعلماء الوافدين إليها[xxv]

عوامل قيام الحركة العلمية بالمغرب الأوسط :

إن أبرز العوامل التي ساعدت على قيام الحركة العلمية بتلمسان في بداية القرن الثامن هجري رابع عشر ميلادي هو قيام الحروب التي سادت العالم الإسلامي من الغزو المغولي وحركة الإسترداد الإسباني المسيحي ووطأة الحركة الصليبية خلال النصف الأول من القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد، فضلا عن الفتن الداخلية وقيام حروب بين الأسر الحاكمة. شهد المشرق أحداث سقوط بغداد تحت سيطرة المغول سنة(656 هـ|1258 م) ونتج عنه إحراق مؤلفات وخزائن الكتب ، ولم ينج منها الفقهاء والعلماء الذين قتلوا وشردوا[xxvi].

أما الأندلس فعرفت حربا مدمرة بين المسليمين والصليبيين شرد على إثرها المسلمون ولم تنج من هذه الحرب المكتبات وكذا خزائن الكتب من الحرق والإتلاف،

حيث أشارت المصادر التاريخية على حرق مائة ألف مخطوط في ساحات مدينة غرناطة وحدها (904 هـ . 1499 م)، إضافة إلى تدمير المؤسسات العلمية والدينية وقتل الفقهاء والعلماء [xxvii] فأخذ المهاجرون يتدفقون على المغرب وزادت أعدادهم في أواخر القرن الثامن للهجرة استقروا بحواضرها[xxviii].

اهتمام بني زيان بالتعليم:

يبدو أن الطلبة الطامحين إلى مزيد من العلم كانوا يغادرون مدنهم متجولين في الأقطار بحثا عن العلماء المشهورين، وكانت الرحلة تتم إلى البلاد المغرب مثل فاس والقيروان، وإلى بلاد المشرق أحيانا مثل بغداد، حيث كانت قد تأسست بها المدرسة النظامية المشهورة التي كان يدرس بها أساتذة مشهورين مثل أبي حامد الغزالي(505 هـ\1111 م)[xxix] .

واتفقت الآراء على أن دخول المدارس المغرب الإسلامي كان بعد سقوط الدولة الموحدية، وكانت أول مدرسة هي تلك التي أسسها أبي زكرياء الحفصي بإفريقية(تونس) ،كما شيد الأمير المريني أبو يوسف يعقوب مدرسة بفاس في أواخر القرن السابع الهجري الثاث عشر ميلادي ثم تبع ذلك ببناء مدارس أخرى في معظم المدن الكبيرة خلال القرن الثامن للهجرة رابع عشر ميلادي[xxx]

شجع الزيانيون الهجرة لبلادهم فتوافد الفقهاء والعلماء والقضاة والأدباء، ذلك لحرصهم على تكوين الإطارات العليا النافعة[xxxi] ولرعايتهم المستمرة للعلم والأدب، وكان منهم الفقيه والشاعر والأديب والفنان مثل السلطان أبي تاشفين الأول المولع بالفن والعمران، والشيخ الفقيه أبي سليمان داوود علي كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم والشاعر أبي حمو موسى الثاني، والفقيه أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي

يحي يغمراسن، كان هؤلاء يشجعون وينشطون الحركة الفكرية والعلمية في تلمسان، إضافة إلى الإشراف على مجالس إلقاء الدروس العلمية المتعلقة بالشريعة وأيضا العلوم الأخرى، وأضحت تلمسان مركزا علميا تستقطب الطلاب وأهل العلم[xxxii] فضلا عن تشجيع الأدباء والتقرب من العلماء، وانتشار التعليم والتأليف في جميع نواحي الفكر الإسلامي في شتى المدن والقرى، وأول من دشن تشجيع الحركة العلمية السلطان يمغراسن وذلك بجلب رجال العلم بطريقة الترغيب إلى تلمسان من أجل التدريس والتأليف[xxxiii]

وكان التعليم منحصرا في بدايته في تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم في المساجد والزوايا، وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة ثانية يتعلم فيها الطلبة معارف أكثر عمقا وأكثر تخصصا كالنحو والفقه والآداب، وفي مرحلة الثالثة يقبل الطلبة على العلوم المتخصصة وأبرزها العلوم الدينية، وانتشر التعليم كالقراءات القرآنية والتفسير والحديث والعلوم العقلية التي من أهمها علوم الكلام أو علوم العقيدة[xxxiv]

المؤسسات التعليمية : تجلى اهتمام بنو زيان بالتعليم في بناء مدارس ومراكز العلم، وكانت هذه الأخيرة قبلة لكل الأدباء وطالبي العلم. وذكر المؤرخون أنه على عهد الزيانيين وجدت ست مدارس بتلمسان موزعة على أحياء مختلفة من المدينة[xxxv]، واختصت هذه الأخيرة منذ قيامها بنشر العلوم الدينية والشرعية على المذهب المالكي [xxxvi]

أما الظروف التي ساعدت على ظهور المدرسة بتلمسان هي تلك النهضة العمرانية التي عرفتها الحاضرة في فترة حكم أبو زيان ثابث(703 ـ 707 هـ \ 1304 م ـ 1308 م) قبل وفاته بفترة وجيزة وبعد استرجاعه أعمال المغرب الأوسط. وأيضا في عهد أبو حمو موسى الأول منذ اعتلائه كرسي العرش، حيث كانت ردة فعل طبيعية

نظرا لما عانت منه تلمسان وتعرضت له من حرب وحصار، وشملت الإصلاحات جميع أجهزة الدولة ، وأهمها كانت إعادة بناء المدينة وتحصينها، ويكون بهذا العمل قد ساهم في بناء حاضرة جديدة، كما عرفت المدينة تطورا عمرانيا في عصر ابنه ابو تاشفين وواكبه الازدهار ورواج العلوم،[xxxvii].

وعلى عهدهم وجدت مراكز للتعليم العالي ، فأولتها الدولة الزيانية جانبا من الاهتمام و عن طريق تجديد العمران الديني والتعليمي الموروث ، فأضاف السلطان يمغراسن بن زيان صومعتين لمسجد أغادير وتاغرارت ، وقام وريث عرشه أبو سعيد عثمان ببناء مسجد أبي الحسن سنة (696 هـ| 1296 م) ، ثم جلب أكبر الفقهاء ومنحهم مناصب هامة للتدريس في الحاضرة أمثال أبي إسحاق التنسي وأخوه الفقيه أبو الحسن التنسي[xxxviii]، مما ساعد الزيانيين بإنشاء مدارس لتكمل الإنجازات الثقافية السابقة، و بذلك كان البداية التأسسية للمدارس وإنشاء أول مدرسة بالحاضرة، في العقد الأول من القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي على يد السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول، وتعتبر مدرسة أولاد الإمام من أهم منجزاته العمرانية، وغايته من ذلك هو تأسيس المجال العلمي المخصص لتعليم الكبار[xxxix] ، فقد عين العالمين ابني الإمام للتدريس وإدارة التعليم بها، ويعد ابن الإمام أبو زيد عبد الرحمن وأخوه وأبو عيسى من علماء تلمسان المشهورين، وحملت المدرسة اسميهما [xl].

لم تعد المدرسة التي بناها أبو حمو لابني الإمام تتسع لكثرة الطلبة وتهافتهم على طلب العلم، فتولي ابنه أبو تاشفين الأول الإشراف على بناء المدرسة التاشفينية بالحاضرة (718- 737 هـ|1318- 1337م) ، شيدت بالقرب من الجامع الأعظم تكريما للفقيه أبي موسى عمران المشذالي ، واحتوت هذه الأخيرة على زخارف فريدة، كانت دليلا واضحا على ولوع أبو تاشفين الأول بالفن والعمارة [xli]، أرادها أن تضاهي

بعمارتها مدارس غرناطة وتونس وفاس، فكانت من أهم المدارس في المغرب الأوسط، فسخر لها معماريون من الأندلس وأسرى الروم ، وعزز بهذا الإنجاز حركة التعليم بتلمسان، بالتوازي مع حضوره البارز للمجالس العلمية التي كان يديرها مجموعة من الفقهاء والقضاة، حول المسائل الفقهية وأصول المذهب المالكي أمثال قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن منصور المعروف بابن هدية الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان والكتابة في المسجد الجامع والفقيه العالم موسى بن عمران بن موسى المشدالي [xlii].

وعلى عهد الاحتلال المريني بنيت مدرسة بقرية غير بعيد عن العباد، وتعتبر ثالث مدرسة شيدت بعد مدرسة أولاد الإمام والمدرسة التاشفينية تلمسان، وكان قد أمر ببنائها السلطان المريني أبو الحسن المريني سنة (747 هـ| 1337م)، واشتهرت هذه المدرسة بفنها المعماري الفريد وزخرفتها المميزة، لها قاعة مخصصة للمحاضرات وإلقاء الدروس تتسع لحلقة كبيرة من الطلاب والمدرسين وتقدم فيها دروس عالية ومعمقة [xliii] .

واصل ابنه السلطان أبو العنان المريني العمل ببناء مدرسة أخرى سنة 754 هـ أو بعدها بقليل قرب ضريح الولي الصالح أبو أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بتلمسان بسيدي الحلوي المتوفي في بداية القرن السابع للهجرة الثالث عشر ميلادي، وكانت متصلة بزاوية المسجد[xliv]. وبذلك يكون السلطان أبو الحسن المريني وابنه أبي العنان قد أضافا مراكز علمية تحتضن المجالس العلمية بالحكم أنهما ينتميان إلى فئة العلماء واحتكاكم وتقربهم بالعلماء والفقهاء [xlv]

زاد اهتمام سلاطين الزيانيين بالفن والشعر والأدب في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر ميلادي ، مثل السلطان أبو حمو الثاني مجدد الدولة الزيانية، تميز بالشعر له

سمات الأندلسية في ثقافته وسلوكاته، وفي عهده انتشر العلم بالمغرب الأوسط ، وله الفضل بإنشاء خامس مدرسة سميت بالمدرسة اليعقوبية (765 هـ| 1364م) تخليدا لوالده أبي يعقوب، وكلف بالتدريس بها أشهر أساتذة عصره أمثال أبي عبد الله الشريف التلمساني [xlvi].

كان للصوفية الأثر في بناء المدارس قرب الزوايا على عهد بني زيان، بحكم موقف التقارب الذي اتخذتها السلطة الزيانية، وهو ماجعل مظاهر التقدير تطبع أهم صور موقف السلطة الزيانية في حين شكلت علاقات الود والتقارب المقابل الصوفي اتجاه ذلك ، وسار الزيانيونيون على منحى المرينينن الذين ضموا مدرسة والزوايا ضمن مخطط العمراني واحد، للتشابه بينهما من حيث الوظائف والنظام الداخلي[xlvii] وتجسد ذلك ببناء المدرسة السادسة فهي تلك التي شيدها أبو العباس أحمد المعتصم الملقب بالعاقل بزاوية الشيخ الصوفي الحسن بن مخلوف أبركان [xlviii] ،و في غياب نص تاريخي أو مصدر مادي يحدد تاريخ بناء المدرسة ، يكفي ربط تاريخ التشييد بفترة حكم السلطان الزياني أحمد العاقل(834 هـ، 866 هـ| 1431م ،1461 م) [xlix]

المكتبات الزيانية:

اهتم عبد الواد ببناء خزانات الكتب التي توضع بها الكتب والمخطوطات ونشطت حركة نقل العلوم وراجت تجارة الكتب [l] فزودوا الحاضرة بأكبر خزانتين للكتب المختلفة بالجامع الأعظم ، باعتبارها المنبع الثقافي الأساسي الذي يتردد إليه الطلبة والأساتذة للتحقيق في مختلف المسائل العلمية ، فضلا عن تزويد مدرسة أولاد الإمام على عهد أبي حمو موسى الأول بخزانة الكتب خلال المرحلة الأولى من افتتاح المدرسة (707 هـ|1307 م).إضافة إلى مكتبة أبو زيان محمد الثاني بالجامع الأعظم سنة(796 هـ،1394م) التي ضمت نسخ من المصاحف، ونسخة من

صحيح البخاري ، ونسخا من كتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض، وكانت خاضعة لنظام الأحباس في مكتبة الجامع الأعظم [li]

شروط الإقامة بالمدرسة : انتشرت في الحواضر الكبرى وكانت معظم تلك المدارس تشتمل على غرف لسكنى الطلاب الغرباء، وللراحة في أوقات الفراغ ولتخزين الأمتعة ، وأيضا مدارس تلمسان وكانت لها أوقاف واسعة، ومن ذلك ربع محبس على طلاب مدرسة تلمسان سنة 792 0 |1393 م، وعين المحبس في وثيقة وقفيه ما يأخده كل واحد من أهل المدرسة، من فقيه و إمام وأستاذ وطالب ومؤذن وخادم ، كذلك قام السلطان أبو زيان محمد بن موسى بن زيان بالحبس على مدرسة تلمسان والمدرسة أخرى هي مدرسة اليعقوبية ، حرص أمراء بني زيان على تعليم الناس حرصا كبيرا، وأولو أهمية كبيرة للمدارس[lii]، وكانت هذه المدارس حكومية تحت الإشراف الرسمي للدولة ، وعناية خاصة للمعاهد العلمية حيث كانوا يخصصون منحا وأموالا للمعلمين وللطلبة الموظفين بالمدارس[liii].

أما شروط قبول الطلبة فتكون حسب النصوص الفقهية ،فتنوعت الفتاوى بين علماء تلمسان وتونس وفاس ووسعت دائرة الشروط وهي عامة على النحو التالي:

كل طالب بلغ العشرين فما فوق ، والمداومة على قراءة القرآن صبحا ومساءا والالتزام بالحضور إلا لسبب ضروري مثل المرض، والالتزام بحضور الدروس ، إضافة إلى عدم انقطاع الطالب عن العلم بالعبادة تحقيقا لغاية المحبس، وفصل الطالب عن الدراسة إذا تعدى عشر سنوات وهو ساكن بالمدرسة[liv]

التعليم الديني: وجدت المدارس ببلاد المغرب عامة وتلمسان خاصة من أجل المذهب المالكي ، نتيجة نشاط حركة أهل السنة وتجدد انبعاثها على مستوى المغرب الإسلامي واسترجاع مكانته الريادية ضمن المذاهب الأخرى، في النصف الأول من القرن السابع للهجرة الثالث عشر ميلادي ، وساعد ذلك نزوح فقهاء السنة المالكية إلى المغرب بعد سقوط المدن الأندلسية في هذه الفترة ، مما دفع بالحكام الزيانيين وبني حفص وبني مرين إلى التقرب من هؤلاء القيام بإصلاحات[lv]. لهذا جاء التعليم الديني بتلمسان انعكاسا للنزاعات السياسة والمذهبية، وقد تأثر بها تأثرا كبيرا وكانت الحياة الفكرية إلى عصر الموحدين تكاد تكون محصورة في العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه. وطغى المذهب السني على غيره من المذاهب الأخرى بعد ما اختفى تأثير الشيعي وانتقال دولة الفاطميين إلى مصر. وعلى عهد المرابطين انتشر المذهب المالكي في الفقه في المغرب العربي، وأصبح الاشتغال بالمسائل الفقهية أكبر شاغل عند علماء هذه الدولة التي أسسها يوسف ابن تاشفين وأراد أن يوحد بها المغرب فوصل إلى تلمسان وندرومة وترك بهما بعض الآثار المتمثلة في المساجد. أما الموحدين الذين انتصروا على المرابطين وأسسوا على أنقاض دولتهم دولة قوية وصل تأثيرها إلى تلمسان، فقد حاول إصلاح التعليم الديني، وأرادوا تطبيق مناهجهم في مدارس المغرب، وخلافا عن المرابطين ،فقد حاولوا نشر العقيدة الأشعرية، فنشروا كتب أبي حامد الغزالي وكتب غيره من الأشاعرة، وكان لهم موقف حذر من الفلسفة والعلوم العقلية رغم ان بعض أمرائهم كانوا يهتمون بعلوم الأوائل إذ شجع الفيلسوف ابن رشد على شرح كتب أريسطو، ولذلك سمي بالشارح الأكبر، ثم ثاروا عليه بتأثير من الفقهاء المذهب المالكي الذين مكنوا لهذا المذهب في المغرب الكبير إلى يومنا هذا[lvi] . وكان هدف سلاطين الدولة الزيانية كغيرهم من ملوك الدولة الإسلامية من

بناء المدارس هو نشر الثقافة وتوجيه الرعية وخدمة مصلحة مذهب لهذا كان إشرافهم على هذه المدارس مباشرا [lvii]

خاتمة:

كان لدعم السلاطين الزيانيين للفقهاء ووحدة المذهب الأثر الكبير في تنشيط الحركة العلمية والثقافية لتصبح تلمسان قطبا علميا ، وعرفت تطورا وازدهارا كبيرين في مختلف مجالات الفكر والثقافة، أنجبت من خلالها عددا كبيرا من الفقهاء والعلماء والمؤرخين والأدباء الذين خدموا العلم، واستطاعت الحاضرة بفضل الحركة العلمية أن تضاهي كبرى عواصم المشرق الإسلامي.

المراجع:

[1] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني ، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، الجزء 01 ، ص 05

[1] المرجع نفسه، ص 318

[1] المرجع نفسه، ص319.

[1] علي كريم علي أحمد ، التأثير السياسي والإداري للمهاجرين الأندلسيين في تلمسان خلال القرنين السابع والثامن الهجريين 14م ـ 13 م ، تلاخيص مداخلات الملتقى الدولي الإسلام في بلاد المغرب ودور تلمسان في نشره، وزارة الثقافة ، جامعة تلمسان، ايام 21. 22 . 23 مارس 2011. ص 21.

[1] عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الطبعة 1982،01، ص 36.

[1] عبد العزيز لعرج، المدارس الإسلامية دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها ، مجلة الدراسات الإنسانية ، العدد 01 ص 118، 119

[1] علي كريم علي أحمد، مرجع سابق، ص 21.

[1] عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص 320.

[1] عبد العزيز فيلالي،المرجع نفسه ، ص 321.

[1]عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان ، مجلة الأصالة، الصادرة عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث ،العدد 26، جويلية 1975، ص138.

[1] عبد العزيز فيلالي،مرجع سابق، ص 141

[1] عبد العزيز لعرج، مقال سابق، ص 118.

[1] عمارة فطيمة الزهراء، المدارس التعليمية خلال القرنين (8- 9 هـ | 14- 15 م) ، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2010 ، ص31،32.

[1] المرجع نفسه ص 18، 19.

[1] المرجع نفسه، ص 34

[1] عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص142.

[1] عمارة فطيمة الزهراء، مرجع سابق، ص 20.

[1] عبد العزيز فيلالي ، مرجع سابق ، 322

[1] عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص 143.

[1] عبد الحميد حاجيات ،أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، مرجع سابق، 37

[1] عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق ، ص 322

[1] عمارة فاطمة الزهراء، مرجع سابق، ص 21.

[1] عمارة فطيمة الزهراء، المرجع نفسه ،ص 24.

[1] عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص 145

[1] عمارة فطيمة الزهراء، مرجع سابق، ص 51.

[1] عبد الفتاح المقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مدبولي ، القاهرة،الطبعة 01 ، 1982، المجلد 03ص 178،177.

[1] عمارة فاطمة الزهراء، مرجع سابق ، ص ص70، 71.

[1] كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية و الدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الاسكندرية للكتاب ، الاسكندرية، 1996، ص 118

[1] عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص 05

[1] عمارة فاطمة زهراء، مرجع سابق، ص 67.

[1] عبد العزيز فيلالي ،مرجع سابق، ص 325، 325.

[1] عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 39 ،49.

[1] عبد العزيز فيلالي،مرجع سابق، ص 226